وفي اليوم عينهِ ظهر في محل رجمهما نورٌ ساطع فوق جثتيهما لاح لاعين كل اهل المدينة وشاهدهُ النجاشي بنفسهِ وتكرَّرت هذه الرؤيا ثلاثة ايام حتى اذن النجاشي لبعض الكاثوليك ان يدفنا الجثتين باكرام . وقد تعدَّدت الآيات التي جرت بشفاعتهما في بلاد الحبشة وغيرها فمن ذلك انهما ظهرا لمونيكا اخت الحاكم تدروس وثبَّتاها في الايمان . ومنها ايضاً انَّ بطرس لاون الذي أغرى بقتلهما نال بعد زمن يسير جزاء اعمالهِ فانهُ تفاه النجاشي الحبشة ولمَّا مرَّ بسواكن امر الوالي بقطع رأسهِ لسعيهِ في موت راهبين اختبر بنفسهِ فضلهما . ثم جعل مجمع الطقوس في رومية يبحث منذ ذاك العهد عن قداسة سيرة الشهيدين وعن صحَّة استشهادهما حتى ابرز الحبر الاعظم حكمهُ النهائي في هذه السنة وسمح بان يكرمهما المسيحيُّون كما يُكرم الشهداء القدّيسون

ولا شكَّ انَّ دمهما الزكي قد اختصب الارض التي فيها أُهرق فانَّ للآباء الكبوشيين في عهدنا رسالةً واسعة في الحبشة والنجاشي مَنليك يتحفَّى بهم ويكرّمهم و يحضُّ رعاياه على استماع قولهم (١ نفعنا الله وسائر المسيحيين بشفاعة شهيدي الحبشة

رحلة الى نهر اليرموك

وبلاد الدن العشر

نظر للاب الكسيس مالون مدرّس اللغة القبطيَّة في المكتب الشرقيّ

هذه رحلة حديثة باشرناها في عطلة عيد الفصح بمعيَّة حضرة الاب هنري لامنس فرأينا ان نسرد رواياها اجمالاً في مجلَّة المشرق علَّها تصيب الحظوى لدى قرَّائها

كان خروجنا من دمشق يوم الخميس الواقع في ٢٠ نيسان راكبين السكَّة الحديدية في وجهة حوران . فكان مسيرنا اوَّلاً في الحدائق الغنَّاء التي تحدق بالمدينة فتزينها بمنطقة من الخضرة والزهور ثمَّ دخلنا في ذلك السهل المتَّسع الذي تحدُّه غرباً اكام الجبل الشرقي السفلى ومنعطف جبل الشيخ الذي تكلّل هامتهُ الثلوج الغرَّاء ويحدُّهُ شرقاً

١) وقد اختصر جناب مكاتبنا عبدالله افندي ميخائيل رعد تاريخ النصرانيَّة في الحبش في المشرق (٦ : ٩١٤ ؛ ٩٨٤) فليراجع

حوران مع سهوله الفسيحة وجبله المنسوب الى الدروز . وليست مفاوزه منبسطة على سواء او متقعرة بعض التقعير كسهول البقاع وانما منظرها على وجه العموم اشبه برملى متلاصقة يفصلها في بعض الامكنة بطاح ذات عطفات خفيفة وتلال مستديرة كأن الطبيعة ارادت ان تُقرّ العين بناظرها البهجة دون ان تستوحش من مرأى خطوطها المتكسرة وزواياها الملتوية

وليس ثمّة غابات ولا شجر ولا دغل وانما ترى العين على مدى البصر زروعاً نامية وغلّات خصبة تبهج الناظرين في فصل الربيع بخضرتها الرائعة وسنابلها المائسة . ثم يلي هذه المزارع فلوات تنمو فيها عشبًا اعشاب لا تصلح لرعي المواشي . وفي بعض الحال تبرز فوق الحضيض صخور من الحجر البركانيّ المعروف بالحرّة وليس غيره في كل بلاد حوران . اما الاهلون فمنهم فلّاحون يحرثون الاراضي ومنهم رُعاة يهتمّون بتربية المواشي من غنم وبقر ونوق . وعندهم الخيل الاصيلة البالغة السرعة الغالية الثمن التي يكثر طلّابها من الاجانب وغيرهم

واوّل قرية ذات شان ادركناها بعد ان عبرنا وادي العجم الكسوة وهي قرية كبيرة فيها البساتين والاشجار المثمرة يتخلّلها نهر صغير بحيث يصحّ ان تُدعى الكسوة واقعة في تلك القفار

ثم واصلنا السير فقطعنا نحو عشر محطّات لقرًى لم نجد فيها ما يستحقّ الذكر يسكن اهلها الاكواخ الحقيرة الّا انّ ابنية المحطّات جميلة ذات حجارة منحوتة . ثم بلغنا الصنمين وهي بلدة يسكنها كثير من الاهلين تكنّفها بآثارها القديمة اشهر وكانت سابقًا احدى مدن الرومان بنوها بالحجارة السودا . وانفقوا على زينتها المبالغ الوافرة دلالةً على ترقّيهم في الحضارة . ويُرى فيها حتى اليوم قناطر واعمدة على رؤوسها اكلّتها تنطق بثروتها السابقة وقد عمد اهلها الحاضرون الى بقايا تلك الابنية الجليلة فاصلحوها نوعاً وسكنوها وهي نعم المساكن . ومما يجدر بنا ذكره انّ هذه البنايات القديمة كأنها من الحجارة لا يدخلها اثر الخشب لخلوّ تلك الجهات من الشجر والغابات . فانّ الابواب ورزّاتها ومزاليجها والكوى والشبابيك والمقاعد حتى الخزائن واصونة الثياب كلّ ذلك من الحجارة البركانيّة

ثمّ سرنا من الصنمين فبلغنا بعد ثلاثين كيلومترًا قرية كبيرة تدعى « شيخ

مسكين ، فيها المباني الحسنة منها قديمة ومنها حديثة وفيها دارٌ للحكومة السنية يقيم فيها المتصرّف يكللها تاجٌ جلناري من الآجرّ مشرفٌ على ما حولها من الرياض الندية

وآخر الخطّ الشامي الى حوران ينتهي كما هو معلوم عند الزيريب على مسافة ١٠١ كيلومتر من دمشق يقطعها القطار بثلاث ساعات مع كسر نصف ساعة في طريقه . والزيريب قرية حقيرة لا تستحقّ الذكر لولا عيونها وبحيرتها التي تجديها حسناً ونضارةً مع ندرة امثالها في تلك الاصقاع . وفي شمالها حصن يُعرف بالقلعة العتيقة شيّدهُ السلطان الغازي سليم الاوّل في القرن السادس عشر . والقرية قسمان قسم حديث شمالي يسمّى الدكاكين بقربه القلعة الجديدة غربيّ القلعة العتيقة وقسم قديم فيه آثار مدينة قديمة اسمها كرم الزيريب وموقعها في وسط بحيرة البجّة التي تدور حولها على هيئة نعل الخيل . وعند البحيرة ينزل كل سنة ركب الحجّاج وبها يستحمّون . ولها المنظر البهي

ومحطّة الزيريب حسنة البناء ظريفة الشكل بُنيت في وسط الحقول جنوبيّ الضيعة وحولها حركة عظيمة فهناك الدواب باصنافها من حمير وبغال وخيل وابل وهناك الخيام المضروبة يسكنها العربان واهل البادية متردّين بثيابهم الزاهية من اعبية مُعلمة وكوفيات ملوّنة وعقالات غليظة ولكل منهم سحنةٌ الدالّة على قبيلته وبينهم العمة الاجانب فترى في هذا المجمع خلاصة التمدّن القديم والحديث معاً

وعند الظهر عاد القطار الى دمشق اما نحن فما لبثنا ان امتطينا الخيل قاصدين قرية الحصن جنوبي الزيريب على مسافة عشرين كيلومترًا منها في جبال عجلون . وكانت الريح الحارّة المعروفة بالشلوق تلفحنا برغرتها لكن طريقنا كانت بهجة بين خضرة الزروع وسنابل الحنطة واصناف الازهار التي يعلو بعضها فيدرك صدر خيلنا . ومع حسن هذه المناظر يبقى القلب منقبضاً بقلّة السكّان وندرة القرى . ولعلّك تسير الساعات التوالية دون ان تلقى في طريقك نفساً حيّة . اللهمّ الّا بعض عرب البادية يجرون في طريقهم صموتًا منهم من يمتطي الخيل ومنهم من يتسنم الجمال وكأنهم يعتقلون الرماح الطويلة . ومن وقت الى آخر كنّا نرى بعض الفلّاحين في وسط زروعهم يرقبونها وكانوا اذا رأونا حيّونا بالمرحبا فنجيبهم بالمرحبتين على مألوف العادة . وما خلا ذلك ما كنّا نسمع حسًّا

يئس لا تغريد طائر ولا طنين ذباب ولا خرير نهر فانّ السكون ساند في تلك الانحاء كانها وما علمنا باننا في بلاد امان لعملت فينا وحشة تلك الاقطار

وبعد سيرنا على ذلك خمس ساعات لم نجد في غضونها سوى ثلاث من القرى الحقيرة ولم تُعجب خيلنا لتبرّد غليلها غير قليل من الماء الكدر في نقرة بعض الصخور واحدى هذه القرى كان فشا فيها داء البقر المعروف بابي هدلان فمات كثير منها وكانت جثثها ملقاة على الحضيض حيثما وقعت حتى في وسط البيوت دون ان يُعنى احد بدفنها وكانت رائحتها الكريهة تنبعث في الهواء فتفسده حتى انّ خيلنا كانت تأبى ان تسير بجوارها

وكان وصولنا الى قرية الحصن قبل غروب الشمس بقليل فتحفّى بنا حضرة الاب سمت (A. Smets) من كهنة اللاتين والمرسل البطريركي فيها . والحصن من الضياع الكبيرة يبلغ اهلها ٢٥٠٠ نفس اكثرهم روم اورثدكس والباقون مسلمون وروم ملكيّون ولاتين . ومقام هذه البلدة موافق لنموّ الاهلين فانّ عدد سكّانها في مدّة ثمان سنوات زاد نحو الف نفس . ولا يزال اهلها يشيدون فيها البيوت الرحبة ويفتحون الحوانيت ويأتيها التجّار من دمشق وكذلك مدارسها على قدم النجاح

ومن خواصّ اهل الحصن لغتهم المخالفة للهجة اللبنانيين وفي كلامهم عدّة الفاظ عربيّة فصيحة كالعنان بدلًا من اللجام والحارث بدلًا من الفلّاح وغير ذلك . وهم يُحسنون اللفظ ولا يختلسون الحركات ولا يمزجون بين الثاء والتاء وبين الذال والزاي . ويلفظون القاف كالجيم المصريّة . وممّا تفرّدوا به كبعض اهل حوران انهم يلفظون الكاف بمنزلة حرفي « ت ش » فيقولون « إرْتشب » اي اركب و « باتشر » اي باكر

وفي صباح اليوم التالي يوم الجمعة ٢١ نيسان زرنا القرية وطفنا في نواحيها . واغرب ما يوجد هناك الانصاب (dolmens) يبلغ عددها المئين وهي عبارة عن ثلاثة احجار عاديّة ضخمة احدها طويل منبسط يبلغ طولهُ ٣ امتار في عرض متر ين يُركز افقيًا فوق حجرين آخرين مربّعين مستطيلين والحجران على بُعد معلوم لا يختلف كثيرًا بين نصب وآخر فيبلغ مترًا و٨٠ س . وفي بعض هذه الآثار قد جُعل الحجر الفوقي على ثلاثة احجار وفي البعض الآخر قد سُدّ احد جانبي المعبر الواقع بين الحجرين بحجر رابع وفي

رسم الكنة الحديثة
رفيقا الى دريعة

الغالب قد سُدَّ جانبهُ الغربيّ . اما علوّ هذه الانصاب فيختلف جدًّا فمنها ما لا يتجاوز ارتفاعهُ ٨٠ س ومنها ما يبلغ ضعف هذا العلو

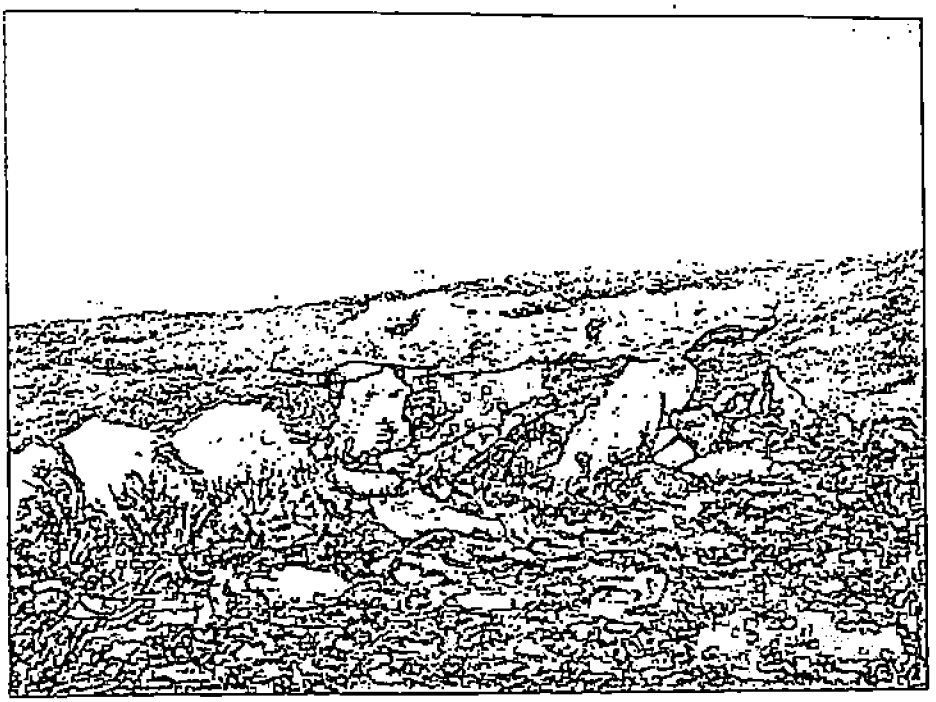

صورة احد انصاب قرية الحصن

وقد كثر القول في حقيقة هذه الانصاب وغايتها وقد زعم البعض انها كانت مذابح دينيَّة وانها هي المشارف التي تكرَّر ذكرها في الاسفار المقدَّسة . وهو رأي ضعيف قد أُهمل اليوم . فانهُ ليس من داعٍ لو صحَّ ذلك ان تقام كل هذه المذابح في محلّ واحد وربَّما وُجد منها ثلاثة او اربعة متجاورة . وفي جوار كفريوبا منها عدد لا يُحصى . ثمَّ ليست هذه الانصاب في الامكنة المشرفة اذ انها تُرى على منعطفات الجبال مهما كان ارتفاعها الَّا انها لا توجد في بطن الاودية . والرأي المرجَّح انها كانت قبورًا ولا يُعرف لها تاريخ اكيد والعلماء يجعلون عهدها في العصور المعروف بعصور الظرَّان

(البقيَّة لعدد آخر)